لعلى خلق عظيم

لعلى خلق عظيم

رحلة السعادة على خطى الحبيب
ووقفات مع سيرته صلى الله عليه وسلم

تمّام بن عبد الرزاق الجاجة

لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ

لماذا هذه الرحلة؟

إن الحديث عن أخلاق النبي ﷺ ليس مجرد استعراض لمواقف عابرة، بل هو تأمل في مفاتيح السعادة الحقيقية التي جسّدها في حياته.

فقد كان ﷺ نموذجاً للإنسان الذي عاش في كمال الطمأنينة والسكينة، فانعكست أخلاقه على من حوله، فأحبوه واتبعوه، وكانت حياته مدرسةً في تحقيق السلام الداخلي والخارجي للإنسان.

من هنا، كانت هذه الرحلة بين جنبات بيت النبوة، لنقف عند محطاتٍ من سيرته العطرة وأخلاقه السامية التي إن أحييناها في حياتنا، شعرنا بمعنى السعادة الحقيقية، لا تلك التي ترتبط بمتاع زائل، بل السعادة التي تنبع من القلوب المطمئنة، والنفوس الراضية، والأخلاق الراقية.

تمّام بن عبد الرزاق الجاجة

لعلى خلق عظيم

رحلة السعادة على خطى الحبيب
ووقفات مع سيرته صلى الله عليه وسلم

الفهرس

المقدمة.. ٦

الفصل الأول ٨

مع أهله وعشيرته.. ٨

محمد صلى الله عليه وسلم مع أزواجه: ٩

عدله صلى الله عليه وسلم بين أزواجه:.. ٢١

العدل القلبي ليس بمستطاع:... ٣١

حسن عشرته لأزواجه:.. ٤١

وفاؤه صلى الله عليه وسلم لأزواجه:.. ٦١

محمد صلى الله عليه وسلم مع أولاده.. ٨١

حب النبي صلى الله عليه وسلم لبناته وأولادهن: ٨١

حبه لبناته صلى الله عليه وسلم: ٨١

حبه صلى الله عليه وسلم لأحفاده وبني عمومته: ٩١

رحمته صلى الله عليه وسلم ببناته وأولادهن:... ١٢

دفع الأذى عنهم:.. ٢٢

صلحه صلى الله عليه وسلم بين بناته وأزواجهن:.. ٢٢

صبره صلى الله عليه وسلم على موت أولاده:... ٢٢

الرسول صلى الله عليه وسلم لا يجامل أولاده على حساب الأمة:............................... ٣٢

الفصل الثاني ٥٢

لين جانبه مع أصحابه ٥٢

وقضاء حوائجهم.. ٥٢

ثانيا - لين جانبه صلى الله عليه وسلم مع أصحابه وقضاء حوائجهم............ ٦٢

مقابلته الإساءة بالإحسان:.. ٦٢

الوفاء بالعهد:.. ٨٢

مودته لأصحابه وسؤاله عنهم وتفقده لهم:................................ ٨٢

إيثاره صلى الله عليه وسلم أصحابه على نفسه:............................ ٩٢

ممازحته أصحابه ومداعبتهم:.. ٩٢

تبسمه حين يلقى أصحابه وحين يحدثهم:.................................. ٠٣

حسن الموعظة:.. ١٣

إجابته الدعوة:.. ١٣

عطفه على الصغار:.. ٢٣

أخلاقه مع الضعاف:.. ٣٣

أخلاقه مع الخدم:.. ٣٣

الفصل الثالث.. ٥٣

مواقفه مع مخالفيه وأعدائه.. ٥٣

ثالثا - مواقفه صلى الله عليه وسلم مع مخالفيه وأعدائه.................... ٦٣

صبره على أعدائه وإحسانه إليهم:.. ٦٣

رحمته بأعدائه:.. ٧٣

عفوه عن مسيئهم:.. ٨٣

وفاؤه لأعدائه:.. ٢٤

كان لا يدعو على أعدائه:.. ٢٤

المقدمة

الحمد لله حمداً طيباً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، نحمده سبحانه أن أكرمنا بنور الهداية، وأرسل نبيه محمداً ﷺ بالهدى ودين الحق ليكون رحمةً للعالمين، ونبراساً للمتقين، ومثالاً يُحتذى به في مكارم الأخلاق. فهو الذي جعله الله قدوةً وأسوة، وأثنى عليه بقوله: "**وَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ**" القلم: ٤»

وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، بيده الخير كله، قسم بين عباده الأخلاق كما قسم الأرزاق، فوهب حبيبه المصطفى ﷺ النصيب الأوفر من الكمال البشري في كل جانب من جوانب حياته، فكان نصيبه من الدنيا كفافا ومن الأخلاق أكملها وأحسنها وأوفاها، جمع بين القوة والرحمة، وبين العدل والفضل، وبين الحزم واللين، فباتت حياته منهجاً لكل من أراد السعادة في الدنيا والنجاة في الآخرة.

والصلاة والسلام على النبي الكريم، الذي قال: "**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**"، وعلى آله وصحبه الذين ساروا على هديه، فنشروا رسالته وأخلاقه، فعمّت بركتها الآفاق، وكانت سبباً في بناء أمم عظيمة قادت العالم في العدل والرقي والإنسانية.

لماذا هذه الرحلة؟

إن الحديث عن أخلاق النبي ﷺ ليس مجرد استعراض لمواقف عابرة، بل هو تأمل في مفاتيح السعادة الحقيقية التي جسّدها في حياته. فقد كان ﷺ نموذجاً للإنسان الذي عاش في كمال الطمأنينة والسكينة، فانعكست أخلاقه على من حوله، فأحبوه واتبعوه، وكانت حياته مدرسةً في تحقيق السلام الداخلي والخارجي للإنسان.

من هنا، كانت هذه الرحلة بين جنبات بيت النبوة، لنقف عند محطاتٍ من سيرته العطرة وأخلاقه السامية التي إن أحييناها في حياتنا، شعرنا بمعنى السعادة الحقيقية، لا تلك التي ترتبط بمتاع زائل، بل السعادة التي تنبع من القلوب المطمئنة، والنفوس الراضية، والأخلاق الراقية.

وقد حرصتُ في هذا العمل المتواضع على تسليط الضوء على ثلاثة جوانب من سيرته العطرة، علّها تكون زاداً لمن أراد أن يسير على خطاه، فيجد فيها طريقاً لحياة هانئة:

معاملته ﷺ لأهله وعشيرته: كيف كان النبي زوجاً حنوناً، وأباً رحيماً، وقريباً ودوداً، يجسد الرحمة والمحبة في أدق تفاصيل حياته الأسرية؟

لين جانبه ﷺ مع أصحابه وقضاء حوائجهم: كيف غرس روح الأخوة والتعاون في نفوس أصحابه، فكان القائد الذي يخدم قبل أن يُخدم، والمعلم الذي يمنح قبل أن يطلب؟

مواقفه ﷺ مع أعدائه ومخالفيه: كيف واجه النبي ﷺ الأذى بالحلم، والعداوة بالعفو، فحوّل ألدّ أعدائه إلى أوفياء لدعوته؟

أسأل الله تعالى أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، وأن يكون وسيلةً لنشر هدي النبي ﷺ في زمنٍ باتت الحاجة ماسةً للعودة إلى أخلاقه ومنهجه، لعلّنا نجد فيها ما يُعيد لحياتنا التوازن والسعادة الحقيقية.

إن أصبتُ فيما كتبتُ فهو من فضلِ الله وتوفيقه، وإن كان فيه نقصٌ أو خطأ، فأسأل الله العفو والصفح، وأستغفره إنه هو الغفور الرحيم، وأسأله أن يرزقني وإياكم شفاعة الحبيب ﷺ ومرافقته في الفردوس الأعلى من الجنة.

كتبه/ تمّام بن عبدالرزاق الجاجة

غرة شعبان ١٤٤٥هـ

الفصل الأول

محمد صلى الله عليه وسلم مع أهله وعشيرته

السعادة الحقيقية تبدأ من الداخل، من البيت الذي يسوده الحب، والتفاهم، والرحمة. فكم من إنسان نال المجد وحقق النجاح في عمله وحياته المادية، لكنه افتقد السكينة في بيته، وكم من آخر عاش في بساطة، لكنه وجد السعادة في دفء أسرته!

ومن أصدق من النبي ﷺ مثالاً على ذلك؟ فقد كان بيته ﷺ نموذجاً للحياة الطيبة، التي تقوم على المودة والتراحم، فكان خير زوجٍ لنسائه، وخير أبٍ لبناته، وخير قريبٍ لأهله، يعاملهم بوجهٍ بشوش، وكلمة طيبة، وقلبٍ يفيض حباً وحناناً.

لقد علمنا النبي ﷺ أن السعادة الأسرية ليست في كثرة المال ولا في سعة البيوت، بل في القلوب العامرة بالمحبة، والتعامل بالحلم والصبر، والتغاضي عن الزلات، والعطاء دون انتظار المقابل. ومن هنا، كانت سيرته ﷺ مع أهله وعشيرته مدرسةً لكل من أراد أن يبني بيتاً مستقراً سعيداً، يقوم على أسس المحبة والاحترام والتقدير.

في هذا الباب، سنتأمل كيف كان النبي ﷺ يتعامل مع زوجاته بحبٍ ورفق، وكيف كان يشاركهم حياتهم الصغيرة قبل الكبيرة، وكيف كان أباً يُشعر بناته بالأمان والحنان، وقريباً يصل رحمه، ليكون بذلك قدوةً لكل من أراد أن يجد السعادة في بيته، فكم من مشكلات أسرية كان يمكن حلها لو اتبعنا هديه ﷺ؟ وكم من قلوبٍ تبحث عن الطمأنينة، تجدها في اتباع سنته في المعاملة والرحمة.

محمد صلى الله عليه وسلم مع أزواجه:

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم المثل الأعلى في الحنان والعطف وحسن المعاشرة لزوجاته كثير المسامرة لهن، متحملا لأخلاقهن وخاصة غيرتهن. فهو صلى الله عليه وسلم القائل ((أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا، وخياركم خياركم لنسائهم)) وهو القائل ((خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي))، ومع أنه عليه الصلاة والسلام كان صاحب المنزلة الرفيعة والمقام المحمود عند ربه عز وجل إلا أن ذلك كله لم يحل بينه وبين لين الجانب وحسن المعاشرة مع أزواجه (رضي الله عنهن).

روى ابن سعد عن عائشة رضي الله عنها أنها سُئلت: كيف كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا خلا في بيته؟ فقالت: كان ألين الناس بسّاماً ضحاكاً.

ولم يجعل النبي صلى الله عليه وسلم من هيبة النبوة سدا رادعا بينه وبين نسائه، بل أنساهن برفقه وإيناسه أنهن يخاطبن رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض

الأحايين، فكانت منهن من تقول له أمام بيتها: تكلم ولا تقل إلا حقا!! ومنهن من تراجعه أو تغاضبه سحابة نهارها، ومن تبلغ في الجرأة عليه ما يسمع به رجل كعمر بن الخطاب في شدته، فيعجب له ويهم أن يبطش بابنته حفصة لأنها تجترئ كما تجترئ الزوجات الأخريات. وإذا رأى النبيُّ غضبا كهذا من جرأة كتلك. كف من غضب الأب وقال له: ما لهذا دعوناك.

وقد كان صلى الله عليه وسلم يتولى خدمة البيت معهن، مساعدة لهن، وتطييبا لنفوسهن، وليتأسى به المسلمون.

روى البخاري عن الأسود قال: سألت عائشة رضي الله عنها: ما كان النبي يصنع في أهله؟ فقالت: «كان في مهنة أهله، فإذا حضرت الصلاة قام إلى الصلاة». وفي هذا تنبيه للأمة أن يسيروا على هذا الكمال، ولا يكونوا من جبابرة الرجال خاصة مع الأهل والعيال.

وهكذا جمع صلى الله عليه وسلم بين حق الله تعالى وحق الأهل في بساطة ويسر. فقد كان صلى الله عليه وسلم هاشا باشا يدخل السرور على أهله ويأذن لهن أن يلعبن بالمباح، قالت عائشة رضي الله عنها: «كنت ألعب بالبنات - أي اللعب التي على صور البنات - ويجيء صواحبي فيلعبن معي، فإذا رأين رسول الله صلى الله عليه وسلم انقمعن منه – أي دخلن وراء ستار حياء وهيبة - وكانت زوجات رسول الله يدخلن علي فيلعبن معي»

وقالت أيضا: لقد رأيت رسول الله يقوم على باب حجرتي والحبشة يلعبون بحرابهم يسترني بردائه لكي أنظر إلى لعبهم، ثم يقوم حتى أكون أنا التي أنصرف .. وكان لعائشة رضي الله عنها دلال عند رسول الله صلى الله عليه وسلم لصغر سنها ولمكانة أبيها عنده.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: « خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض أسفاره وأنا جارية - أي حديثة السن - لم أحمل اللحم ولم أبدن، فقال للناس: « تقدموا « فتقدموا، ثم قال لعائشة رضي الله عنها : « تعالي حتى أسابقك ، فسابقته فسبقته ، فسكت عني ، حتى حملت اللحم وبدئت وسمنت فخرجت معه في بعض أسفاره فقال صلى الله عليه وسلم : تقدموا فتقدموا ، ثم قال : « تعالي أسابقك « قالت عائشة رضي الله عنها : فسبقني ، فجعل يضحك عليه الصلاة والسلام ويقول : «هذه بتلك « .

وإذا كانت هذه بعض أخباره صلى الله عليه وسلم مع أزواجه في أحواله العادية فإن أحواله صلى الله عليه وسلم مع أزواجه في حالة الغضب لا تخرج عن هذه الروح الطيبة من الرحمة والصفح.

قالت عائشة رضي الله عنها: « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا غضبت وضع

يده على منكبي وقال: «اللهم اغفر لها ذنبها وأذهب عنها غيظ قلبها، وأعذها من الفتن ". وقالت: « قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم إني الأعلم إذا كنت علي راضية وإذا كنت علي غضبى. قالت فقلت: من أين تعلم ذلك ؟ قال : إن كنت علي راضية فإنك تقولين : لا ورب محمد ، وإذا كنت علي غاضبة تقولين : لا ورب إبراهيم عليه السلام . قلت: أجل والله ما أهجر إلا اسمك.

وقالت عائشة رضي الله عنها: «كان بيني وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم كلام فقال: من ترضين أن يكون بيني وبينك؟ أترضين أبا عبيدة ابن الجراح؟ قلت: لا، ذاك رجل لن يقضي لك علي. قال: أترضين بعمر؟ قلت: لا، إني أفرق - أخاف - منه قال: فالشيطان يفرقه، قال: أترضين بأبي بكر؟ قلت: نعم. فبعث إليه فجاء فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اقض بيني وبين هذه. قال أبو بكر: أنا يا رسول الله ؟ قال : نعم ، فتكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت له : اقصد يا رسول الله - أي اعدل - قالت : فرفع أبو بكر يده فلطم وجهي لطمة بدر فيها أنفي ومنخراي دما - خرج سريعا - وقال : لا أبا لك ، فمن يقصد إذا لم يقصد رسول الله ؟! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما أردنا هذا، وقام فغسل الدم عن وجهي وثوبي بيده»

ومعاملته صلى الله عليه وسلم مع أزواجه هي المعاملة الطيبة في كل الأحيان وفي مختلف الظروف، في العسر واليسر، والسعة والضيق ... والخلافات الأسرية أمر طبيعي، ينبغي على المرء أن يعالجها بحكمة ورفق فإن مظاهر الحياة ومتطلباتها المادية لا نهاية لها، وحب النساء لهذه المظاهر - في الغالب - أكثر من حب الرجال لها، والمطالب بالإنفاق دائما هو الرجل، فإذا ما طولب بزيادة الإنفاق وكان قادرا فعليه أن يوسع على أهله ما استطاع إلى ذلك سبيلا، كما قال عز وجل: ((لينفق ذو سعة من سعته)) . أما إذا عجز فعليه أن يرد بالحكمة وأن يعتذر بلين ورفق، والرسول عليه الصلاة والسلام الذي جعله الله قدوة لنا يضرب لنا أروع الأمثلة في ذلك، فقد ورد أن أزواجه عليه الصلاة والسلام طلبن زيادة في النفقة، ولم يكن يقدر على ذلك فأنزل الله عز وجل ((يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجرا عظيما)).

عن جابر قال: «أقبل أبو بكر يستأذن على رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يؤذن له، ثم أقبل عمر فاستأذن فلم يؤذن له، ثم أذن لهما فدخلا والنبي صلى الله عليه وسلم جالس حوله نساؤه وهو ساكت. فقال عمر: لأكلمن رسول الله صلى الله عليه وسلم لعله يضحك، فقال يا رسول الله لو رأيت ابنة زيد امرأة عمر سألتني النفقة آنفا فوجأت عنقها!! – أي ضربتها- فضحك النبي صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه وقال: من حولي يسألنني النفقة، فقام أبو بكر إلى عائشة ليضربها، وقام عمر

إلى حفصة ليضربها، كلاهما يقول: تسألان النبي صلى الله عليه وسلم ما ليس عنده؟ فقال نساء الرسول ﷺ: والله لا نسأله بعد هذا ما ليس عنده أبدا. ثم اعتزلهن شهرا أو تسعة وعشرين يوما حتى نزلت الآية وفيها تخيير أمهات المؤمنين، فبدأ بعائشة فقال: إني ذاكر لك أمرا ما أحب أن تعجلي فيه حتى تستأمري أبويك، قالت: ما هو؟ فتلا عليها قوله تعالى: ((يا أيها النبي قل لأزواجك ... الآية ، فقالت عائشة : أفيك أستأمر أبوي؟ بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة. وفي رواية للبخاري « وفعلت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم مثل ما فعلت عائشة من اختيار الله ورسوله والدار الآخرة. . وفي رواية أن عائشة قالت لرسول الله ﷺ: أسألك ألا تذكر لنسائك ما اخترت. فقال لها: إن الله تعالى لم يبعثني متعنتا، ولكن بعثني معلما ميسرا، لا تسألني امرأة منهن عما اخترت إلا أخبرتها».

وفي البخاري أنه لما نصر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم ورد عنه الأحزاب وفتح عليه النضير وقريظة، ظن أزواجه عليه الصلاة والسلام أنه اختص بنفائس اليهود وذخائرهم، فقعدن حوله وقلن: يا رسول الله بنات كسرى وقيصر في الحلي والحلل والإماء والخدم، ونحن على ما تراه من الفاقة والضيق، وآلمن قلبه الشريف عليه الصلاة والسلام بمطالبتهن له بتوسعة الحال وأن يعاملن بما تعامل به الملوك وأبناء الدنيا أزواجهنّ ، فأمره الله تعالى أن يقرأ عليهن ما نزل في أمرهنّ . ولما اخترن الله ورسوله وآثرن نعيم الحياة الآخرة على الدنيا ومتاعها الزائل كافأهن الله بمزيد تكريم في الدنيا وذلك بأن حرم على رسول الله التزوج عليهن أو أن يتبدل بهن غيرهن، وفي ذلك يقول تعالى ((لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن إلا ما ملكت يمينك)) .

عدله صلى الله عليه وسلم بين أزواجه:

من المعروف أن النبي صلى الله عليه وسلم كان له زوجات كثيرات وكان عليه الصلاة والسلام يعدل بينهن في النفقة وفي المبيت وفي السفر والإقامة، وكل ما يتصل بهن مما هو في مقدور البشر، والذي كلف الله تعالى به وجعله شرطا لإباحة تعدد الزوجات في قوله تعالى: ((فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم)).

روي أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا صلى العصر دار على نسائه فدنا منهن واستقرأ أحوالهن فإذا جاء الليل انقلب إلى صاحبة الليلة فخصها بليلتها.

قالت عائشة رضي الله عنها: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد سفرا، أقرع بين نسائه فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه»، وكان يقسم لكل امرأة منهن يومها وليلتها.

وكان صلى الله عليه وسلم يعطي كل واحدة نصيبها سواء رضي عنها أو غضب منها، إلا أن تتبرع به لغيرها عن طيب نفس منها. فقد وجد صلى الله عليه وسلم على صفية رضي الله عنها شيئا في نفسه. فقالت صفية لعائشة: « هل لك أن ترضي رسول الله عني وأهب لك يومي؟ » قالت عائشة: نعم، فقعدت عائشة رضي الله عنها إلى جنب رسول الله صلى الله عليه وسلم في يوم صفية، فقال: إليك عني يا عائشة فإنه ليس يومك ، فقالت : ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، وأخبرته الخبر فرضي عن صفية .

وروى الحاكم في المستدرك عن صفية من مسندها قالت: « دخل علي رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أبكي، فقال: يا بنت حيي ما يبكيك؟ قلت: بلغني أن عائشة وحفصة ينالان مني ويقولان نحن خير منها، نحن بنات رسول الله وأزواجه، قال: ألا قلت كيف تكونان خيرا مني وأبي هارون وعمي موسى وزوجي محمد عليه الصلاة والسلام وعن عائشة رضي الله عنها قالت: « رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من البقيع فوجدني وأنا أجد صداعا في رأسي وأقول: وا رأساه. فقال ﷺ: بل أنا والله يا عائشة وا رأساه. قالت: ثم قال وما ضرك يا عائشة لو مت قبلي فقمت عليك وكفنتك وصليت عليك ودفنتك؟ قالت: والله لكأني بك لو قد فعلت ذلك، لقد رجعت إلى بيتي فأعرست فيه ببعض نسائك. قالت : فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وتتام به وجعه - ازداد وجعه - وهو في بيت ميمونة فدعا نساءه فاستأذنهنّ في أن يمرّض في بيتي فأذنّ له .

العدل القلبي ليس بمستطاع:

والعدل الذي تقدم إنما هو العدل الظاهري، من النفقة والكسوة والمبيت وغير ذلك وهو الذي في مقدور البشر، أما العدل القلبي كحب الرجل لإحدى زوجاته أكثر من غيرها فهذا غير مقدور ولم يكلف الله تعالى به: ((ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة))

ولكن يجب على المسلم ألا يجور على المرغوب عنها كل الجوار، وأن يعدل بينهن ما استطاع إلى ذلك سبيلا. فلقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يحب بعض زوجاته كالسيدة عائشة - رضي الله عنها - أكثر من غيرها وكان يتوجه إلى الله عز وجل ألا يؤاخذه على ذلك، فيقول: (اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تؤاخذني فيما تملك ولا أملك) وفي رواية: (وأنت أعلم بما لا أملك) يعني فرط محبته لعائشة رضي الله عنها وأرضاها.

حسن عشرته لأزواجه:

إذا كان الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم صاحب الأخلاق العظيمة، والمعاملات الكريمة مع الناس، فإن حظ زوجاته صلى الله عليه وسلم كان أوفر وأكثر، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: « ما كان أحد أحسن خلقا من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ما دعاه أحد من أصحابه وأهل بيته إلا قال: لبيك « . وعن أنس رضي الله عنه قال: « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إن أتي بهدية قال: اذهبوا بها إلى بيت فلانة فإنها كانت صديقة لخديجة، إنها كانت تحب عائشة».

وسُئلت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: كيف كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا خلا في بيته؟ فقالت: « كان ألين الناس، بساما ضحاكا».

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «دخلت امرأة على رسول الله صلى الله عليه وسلم فبشّ لها وأحسن السؤال عنها فلما خرجت قال: (إنها كانت تأتينا أيام خديجة ، وإن حسن العهد من الإيمان).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: « لم يمتلئ جوف النبي صلى الله عليه وسلم شبعا قط، وكان في أهله لا يسألهم طعاما ولا يتشهاه، إن أطعموه أكل، وما أطعموه أكل، وما سقوه شرب ". وعنها قالت: « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيته في مهنة أهله، يغلي ثوبه، ويحلب شاته، ويرقع ثوبه، ويخصف نعله، ويخدم نفسه، ويقم البيت، ويعقل البعير، ويعلف ناضحه، ويأكل مع الخادم ويعجن معها، ويحمل متاعه في السوق. وكان عليه الصلاة والسلام حسن العشرة مع أزواجه، قال الإمام النووي: « وهو ظاهر فعله الذي واظب عليه، مع مواظبته على قيام الليل، فينام مع إحداهن فإذا أراد القيام لوظيفته قام وتركها، فيجمع بين وظيفته وأداء حقها المندوب وعشرتها بالمعروف.

وعن أنس رضي الله عنه قال: « كان صلى الله عليه وسلم لا يطرق أهله» - أي لا يفاجئهم بليل –

وعنه أيضا رضي الله عنه أن أم سليم بعثت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بقناع عليه رطب، فجعل يقبض القبضة فيبعث بها إلى بعض أزواجه، ثم جلس فأكل بقيته أكل رجل يُعلم أنه يشتهيه.

وعن أنس رضي الله عنه قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم عند بعض نسائه، فأرسلت إحدى أمهات المؤمنين بصحفة فيها طعام، فضربت التي كان النبي صلى الله عليه وسلم في بيتها يد الخادم، فسقطت الصحفة وانطلقت، فجمع النبي صلى الله

عليه وسلم فلق الصحفة، ثم جعل يجمع الطعام الذي كان فيها وهو يقول: غارت أمكم ثم حبس الخادم حتى أتى بصحفة من عند التي هو في بيتها ، فدفعها إلى التي كُسرت صحفتها ، وأمسك المكسورة في بيت التي كسرتها»

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «ما رأيت صانعة طعام مثل صفية، أهدت إلى النبي صلى الله عليه وسلم إناء فيه طعام، فما ملكت نفسي أن كسرته، فقلت: يا رسول الله ما كفارته؟ قال: إناء بإناء وطعام بطعام»

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يمازح زوجاته مزاحا طيبا، يدخل السرور على نفوسهن. فعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: أن رجلا سأله: أكان رسول الله يمزح؟ قال: «نعم»

كسا النبي صلى الله عليه وسلم بعض نسائه ثوبا واسعا قال: البسيه واحمدي الله، وجري من ذيلك هذا كذيل العروس ". وكان صلى الله عليه وسلم يسرب بنات الأنصار إلى عائشة رضي الله عنها يلعبن معها.

وكان صلى الله عليه وسلم إذا شربت عائشة رضي الله عنها من الإناء أخذه فوضع فمه موضع فمها وشرب. وإذا تعرقت عرقا – أي أكلت ما على العظم من لحم - أخذه فوضع فمه موضع فمها وأكل منه.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «جاء حبشة يزفِنون يوم عيد في المسجد -أي يلعبون- فدعاني النبي صلى الله عليه وسلم فوضعت رأسي على منكبه فجعلت أنظر إلى لعبهم حتى كنت أنا التي أنصرف من النظر إليهم»

وفي رواية الترمذي: «قام صلى الله عليه وسلم فإذا حبشة يزفنون - يرقصون - في المسجد - فقال: يا عائشة تعالي فانظري، فوضعت لحيي على منكب رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعلت أنظر إليهم ما بين المنكب إلى رأسه، فقال لي: أما شبعت.. أما شبعت؟ فجعلت أقول: لا.. لا».

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «كنت إذا غضبتُ عرَك – أي قرص - رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنفي وقال: يا عويش قولي: اللهم رب محمد اغفر لي ذنبي وأذهب غيظ قلبي وأجرني من مضلات الفتن»

قال القسطلاني: وهكذا كانت أحواله صلى الله عليه وسلم مع أزواجه، لا يأخذ عليهن، ويعذر هن، وإن أقام عليهن قسطاس عدل أقامه بغير قلق ولا غضب، بل رؤوف رحيم، حريص عليهن وعلى غيرهن، عزيز عليه ما يعنتهن.

وفاؤه صلى الله عليه وسلم لأزواجه:

الوفاء صفة من الصفات الحميدة التي يتصف بها القليل من الناس، ذلك أنها قد تؤدي إلى تحمل بعض التبعات، ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في القمة من الوفاء، ليس للحاضر فحسب، بل للغائب ولو كان ميتا. وتحضرني هنا بعض صور وفائه صلى الله عليه وسلم لزوجته خديجة – رضي الله عنها - بعد موتها.

قالت أمّنا عائشة رضي الله عنها لما غارت من كثرة ثنائه على خديجة: «قد رزقك الله خيرا منها، فقال: لا والله ما رزقني خيرا منها، آمنت بي حين كفرني الناس، وأعطتني مالها حين حرمني الناس»، وزاد الطبراني « وآوتني إذ رفضني الناس، ورزقت منها الولد إذ حرمتموه»

وفي الصحيح عن عائشة رضي الله عنها قالت: « كان صلى الله عليه وسلم إذا ذبح الشاة يقول: أرسلوا إلى أصدقاء خديجة، قالت عائشة: فأغضبته يوما فقلت: خديجة؟ فقال: إني رزقت حبها «

وروى الشيخان عن عائشة قالت « ما غرت على أحد كما غرت على خديجة وما رأيتها، ولكن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر ذكرها، وربما ذبح الشاة فيقطعها أعضاء ثم يبعثها في صديقات خديجة، فربما قلت: كأن لم يكن في الدنيا إلا خديجة؟ فيقول عليه الصلاة والسلام: إنها كانت وكانت وكان لي منها ولد، وخير نساء السماء مريم ابنت عمران، وخير نساء الأرض خديجة».

وروت عائشة « أن عجوزا جاءت إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: من أنت؟ فقالت: جثامة المزنية، قال: أنت جثامة! كيف أنتم؟ كيف حالكم؟ كيف كنتم بعدنا؟، قالت: بخير، بأبي أنت وأمي، فلما خرجت قلت : يا رسول الله تقبل على هذه العجوز هذا الإقبال !! قال: إنها كانت تأتينا أيام خديجة ، وإن حسن العهد من الإيمان «

وجملة القول : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم بأقواله وأفعاله أعطانا أعظم مثال وأروعه على حسن العشرة ،ومعاملة الزوجة حتى ليخيل للمرء أنه جمع لها كل الفضل فلا تُزوّج إلا بإذنها ومن تهوى، ومنع عنها عدوان الشك والبهتان في عرضها، وكفل لها الأجر والمثوبة نظير لزومها لدارها ورعايتها لزوجها وأطفالها، وساوى بينها وبين المجاهدين الجادين بأرواحهم في الأجر، والمشاهدين لحضور الجماعات والجمع والأعياد والحج والعمرة معه صلوات الله وسلامه عليه ... وجعل أجر من قتل دون أهله الشهادة، قال الرسول العظيم ﷺ في حديث طويل :» من قتل دون أهله فهو شهيد «، وحث على المساواة في معاملتها ، فقال عليه الصلاة والسلام :((إذا كان عند الرجل

امرأتان فلم يعدل بينهما جاء يوم القيامة وشقه ساقط)) وبشّر عليه الصلاة والسلام الزوجين المتحابين بقوله الشريف: ((إن الرجل إذا نظر إلى امرأته ونظرت إليه، نظر الله إليهما نظر رحمة، فإذا أخذ بكفها تساقطت ذنوبهما من خلال أصابعهما)) .

وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم ينس الزوجة والإشادة بذكرها في أجل المواقف وأهمها، فقد ذكر حقها وأوصى بها الرجال في خطبته الجامعة في حجة الوداع في الموقف المهيب من يوم عرفة، قال عليه الصلاة والسلام أمام الملأ الأعظم: "فاتقوا الله في النساء فإنكم اتخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله» وفي هذا المعنى يؤكد الرسول صلى الله عليه وسلم رأفته بالمرأة وتبيان حقها، فكانت آخر كلماته في الدنيا وهو يودعها وصاته بهن ثلاث كلمات ظل يتكلم بهن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى تلجلج لسانه وخفي كلامه ﷺ، جعل يقول: «الصلاة .. الصلاة.. الصلاة.. وما ملكت أيمانكم، لا تكلفوهم مالا يطيقون، الله الله في النساء فإنهن عوان - أي أسيرات - في أيديكم، أخذتموهن بعهد الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله» وقال صلى الله عليه وسلم مادحا الأزواج وحاثا لهم على حسن معاملة ومعاشرة النساء: ((أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم أخلاقا، وألطفهم بأهله))

ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبغض الرجل زوجته لمجرد أنه يكرهها ... فجاء التوجيه النبوي الكريم مفسرا لقول الحق تبارك وتعالى (وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا). قال عليه الصلاة والسلام مفسرا ذلك: «لا يفرك مؤمن مؤمنة، إن كره منها خلقا رضي منها آخر» ومن وحي هذا التوجيه النبوي غضب عمر بن الخطاب رضي الله عنه ممن جاء يخبره بطلاق زوجته لأنه لا يحبها، ورد عليه عمر قائلا: أكل البيوت بنيت على الحب؟ أين التذمم والمروءة؟!

فصلاة ربي وسلامه على خير الأزواج ... وأفضل خلق الله بأبي هو وأمي صلى الله عليه وسلم.

محمد صلى الله عليه وسلم مع أولاده

حب النبي صلى الله عليه وسلم لبناته وأولادهن:

بين الله عز وجل الهدف والغاية من بعثة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى: ((وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين))، وقال عليه الصلاة والسلام: ((إنما أنا رحمة مهداة)) . هذه الرحمة التي جمعت حوله العدو والصديق، وشملت أكثر العوالم حتى شملت الحيوانات، ولقد نال منها بناته وأولادهن الشيء الكثير وأراد الله عز وجل ألا يعيش له صلى الله عليه وسلم إلا البنات لحكم لا يعلمها إلا رب الأرض والسماوات، وإذا كانت العرب تئد البنات خوف العار والفقر، فإن الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة والتسليم قد ضرب المثل الأعلى في حسن التربية والرعاية لبناته حتى يكون قدوة لغيره في الرحمة بهذا المخلوق الضعيف الذي كان يحرم من الحياة دون ذنب، كما قال تعالى ((وإذا الموؤودة سئلت. بأي ذنب قتلت))

وهنا أذكر طرفا من معاملته صلى الله عليه وسلم لبناته.

حبه لبناته صلى الله عليه وسلم:

كانت فاطمة رضي الله عنها أكثر أولاد الرسول صلى الله عليه وسلم مكثا معه، فقد مات أولاده غيرها قبل وفاته أما هي فبقيت بعد وفاته ستة أشهر، لذلك نجد أن حب النبي صلى الله عليه وسلم ظهر واضحا في شخصية فاطمة رضي الله عنها حتى قال عليه الصلاة والسلام :((أحب أهلي إلي فاطمة))، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد سفرا يكون آخر عهده بها، وإذا قدم أول ما يدخل عليها. وعن عبد الله بن الزبير رضي الله عنه أن عليا ذكر ابنة أبي جهل -أي يفكر بالزواج بها -فقال صلى الله عليه وسلم: ((فاطمة بضعة مني يؤذيني ما يؤذيها وينصبني ما ينصبها))

ولم يقتصر حبه صلى الله عليه وسلم لبناته وهم صغار وإنما أظلهم هذا الحب طوال حياتهن، فكان صلى الله عليه وسلم يختار لهن الأكفاء من الرجال، ويذهب بنفسه لمشاركته أفراحهن. قالت أم أيمن رضي الله عنها: « زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم ابنته فاطمة من علي بن أبي طالب وأمره ألا يدخل عليها حتى يجيء، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى وقف بالباب وسلم، فاستأذن فأُذن له، فقال : أثم أخي؟ فقالت أم أيمن: بأبي أنت وأمي يا رسول الله من أخوك؟ قال: علي بن أبي طالب، قالت:

وكيف يكون أخاك وقد زوجته ابنتك؟ قال: هو ذاك يا أم أيمن.. فدعا بماء في إناء فغسل فيه يديه، ثم دعا عليا فجلس بين يديه فنضح على صدره من ذلك الماء وبين كتفيه، ثم دعا فاطمة فجاءت بغير خمار تتعثر في ثوبها، ثم نضح عليها من ذلك الماء، ثم قال: ((والله ما ألوت أن زوجتك خير أهلي)).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يمر ببيت فاطمة ستة أشهر إذا خرج الصلاة الفجر يقول: (الصلاة الصلاة يا أهل بيت محمد، إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا). وكان صلى الله عليه وسلم يقوم لابنته فاطمة إذا قدمت لزيارته مرحبا ومسهلا ويقبل ما بين عينيها، وتأخذ هي يده وتقبلها ويأخذها من يدها ويبسط لها رداءه لتجلس عليه، وكان يردد دائما: (فاطمة بضعة مني يربيني ما يريبها)، وجعل الله عقب رسوله العظيم صلى الله عليه وسلم من ابنته فاطمة.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: « أقبلت فاطمة رضي الله عنها تمشي كأن مشيتها مشية رسول الله فقال: مرحبا يا ابنتي، ثم أجلسها عن يمينه أو عن شماله ثم أسر إليها حديثا فبكت، ثم أسر إليها حديثا فضحكت. فقلت أي عائشة: ما رأيت كاليوم فرحا أقرب من حزن، فسألتها عما قال؟ فقالت: ما كنت لأفشي سر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما قبض عليه الصلاة والسلام قالت: إنه أسر إلي فقال: «إن جبريل يعارضني - يدارسني - القرآن في كل عام مرة، وإنه عارضني به العام مرتين ولا أراه إلا قد حضر أجلي وإنك أول أهل بيتي لحوقا بي ، ونعم السلف أنا لك ، فبكيت لذلك . ثم قال: ألا ترضين أن تكوني سيدة نساء هذه الأمة أو نساء المؤمنين؟ قالت: فضحكت لذلك»

حبه صلى الله عليه وسلم لأحفاده وبني عمومته:

إذا كان حبه صلى الله عليه وسلم لأولاده طبعا فيه وسجية خلق عليها، فحبه لأولاد بناته وبني عمومته من هذا القبيل فقد امتلأت سيرته صلى الله عليه وسلم بالقصص العذبة من مواقفه الإنسانية مع أحفاده وبني عمومته لتعطينا القدوة الحية الرائعة.. فهو لا يطيق أن يسمع بكاء أحد حفيديه الحسن والحسين رضي الله عنهما حتى ولو كان مارا في شأن من شؤونه فيقف ويطرق الباب على أمهما وينبهها قائلا: « أما علمت أن بكاءه يؤذيني. وفي مرة أخرى سمع بكاء الحسين فاقتحم الدار فأبصر أبويه نائمين.. فحمله إلى غنمة بصحن الدار فحلبها وسقاه من لبنها حتى سكن جوعه وهدأ روعه

... ورآهما مرة وهو يخطب المسلمين في مسجده يعثران في ثوبهما فتوقف عن إتمام خطبته، ونزل عن منبره وحملهما ووضعهما أمامه وأتم خطابه وقال: صدق الله تعالى إذ يقول: (إنما أموالكم وأولادكم فتنة. نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما)

ويحدثنا جابر بن عبد الله رضي الله عنه أنه كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعض الصحابة في طريقهم إلى طعام دعي له رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإذا الحسين يلعب في الطريق مع صبيان، فأسرع النبي صلى الله عليه وسلم أمام القوم، ثم بسط يده فجعل الحسين يغد هاهنا وهاهنا فيضاحكه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أخذه فجعل إحدى يديه في ذقنه والأخرى بين رأسه وأذنيه، ثم اعتنقه وقبله، ثم قال: (حسين مني وأنا منه أحب الله من أحبه).

وأخرج أحمد عن عبد الله بن الحارث كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصف عبد الله وعبيد الله وكثيرا أبناء عمه العباس رضي الله عنهم ثم يقول: من سبق إلي فله كذا وكذا، قال: فيستبقون إليه فيقعون على ظهره وصدره فيقبلهم ويلتزمهم «

قال أبو قتادة: « بينما نحن على باب رسول الله صلى الله عليه وسلم جلوس، إذ خرج علينا رسول الله يحمل أمامة بنت أبي العاص بن الربيع وهي صبية وأمها زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: فصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي على عاتقه يضعها إذا ركع ويعيدها على عاتقه إذا قام حتى قضى صلاته يفعل بها ذلك».

وعن علي بن زيد بن جدعان « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل على أهله ومعه قلادة، فقال: لأعطينها أحبكن إلي، فقلن: يدفعها إلى ابنة أبي بكر، فدعا بابنة أبي العاص من زينب فعقدها بيده وكان على عينها رمض فمسحها».

وقال شداد بن عمرو رضي الله عنه « دخلت على وائلة بن الأسقع وعنده قوم فذكروا عليا، فلما قاموا قال لي: ألا أخبرك بما رأيت من رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقلت: بلى. قال: أتيت فاطمة رضي الله عنها أسألها عن علي فقالت: توجه إلى رسول الله. فجلست أنتظره حتى جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه حسن وحسين رضي الله عنهما أخذ كل واحد منهما بيده حتى دخل فأتى عليا وفاطمة فأجلسهما بين يديه وأجلس حسنا وحسينا كل واحد منهما على فخذه ثم لف عليهما ثوبه - أو قال كساءه - ثم تلا هذه الآية: ((إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا))

وقال: (اللهم أهل بيتي، وأهل بيتي أحق).. وعن علي رضي الله عنه قال: «دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا نائم على المنامة، فاستسقى الحسن، فقام رسول الله إلى

شاة مكئ - أي قل لبنها وانقطع - فحلبها رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاء الحسين فنحاه.. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: « قبل النبي صلى الله عليه وسلم الحسين بن علي رضي الله عنهما وعنده الأقرع بن حابس، فقال الأقرع: إن لي عشرة من الولد ما قبلت منهم أحدا، فنظر إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: (من لا يرحم لا يرحم) » .

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي والحسن والحسين يلعبان ويقعدان على ظهره، ودخل الحسن رضي الله عنه على النبي صلى الله عليه وسلم وهو يصلي قد سجد ، فركب ظهره ، فأبطأ النبي في سجوده حتى نزل الحسن ، فلما فرغ قال له أصحابه : أطلت سجودك ، فقال : إن ابني هذا قد ارتحلني فكرهت أن أعجله حتى يقضي حاجته».

رحمته صلى الله عليه وسلم ببناته وأولادهن:

عن عائشة رضي الله عنها قالت: « لما بعث أهل مكة في فداء أسراهم، بعثت زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم في فداء زوجها أبي العاص بن الربيع، فبعثت بمال وبعثت فيه بقلادة كانت لخديجة رضي الله عنها، قالت: فلما رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم رق لها رقة شديدة وقال: إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا لها الذي لها فافعلوا، فقالوا نعم يا رسول الله وردوا عليها الذي لها « . وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: « لما ماتت رقية وبكت النساء فجاء عثمان يضربهن، فقال صلى الله عليه وسلم: (مهما يكن من العين والقلب فمن الله الرحمة، ومهما يكن من اليد واللسان فمن الشيطان)، فقعدت فاطمة على شفير القبر تبكي فجعل يمسح عينيها بطرف ثوبه "

وعن أسامة بن زيد قال: « أرسلت بنت النبي صلى الله عليه وسلم زينب رضي الله عنها أن ابني قد احتضر -حضرته مقدمات الموت - فاشهدنا يا رسول الله ، فأرسل يقرؤها السلام ويقول (إن الله ما أخذ وله ما أعطى وكل شيء عنده بأجل مسمى فلتصبر ولتحتسب)، فأرسلت إليه تقسم عليه ليأتيها، فقام ومعه سعد بن عبادة ومعاذ بن جبل وأبي بن كعب وزيد بن ثابت ورجال من الصحابة رضي الله عنهم ، فدفع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الصبي فأقعده في حجره، ونفسه يقعقع - أي يتحرك ويضطرب - ففاضت عيناه صلى الله عليه وسلم، فقال سعد : يا رسول الله ما هذا؟ فقال عليه الصلاة والسلام: هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده - وفي رواية - في قلوب من يشاء من عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء)

دفع الأذى عنهم:

عن علي بن الحسين أن المسور بن محزمة أخبره أن علي بن أبي طالب خطب ابنة أبي جهل وعنده فاطمة ابنة النبي صلى الله عليه وسلم، فلما سمعت بذلك فاطمة أتت النبي صلى الله عليه وسلم فقالت له: إن قومك يتحدثون أنك لا تغضب لبناتك؟ وهذا على ناكح ابنة أبي جهل. قال المسور: فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فسمعته حين تشهد ثم قال: «أما بعد فإني أنكحت أبا العاص بن الربيع فصدقني، وإن فاطمة بنت محمد بضعة مني وأنا أكره أن يفتنوها».

صلحه صلى الله عليه وسلم بين بناته وأزواجهن:

قال عمرو بن سعيد: « كان في نفس علي بن أبي طالب على فاطمة، فقالت: والله لأشكوك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فانطلقت وانطلق علي بإثرها فقام حيث يسمع كلامها، فشكت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم غلظة علي وشدته عليها، فقال عليه الصلاة والسلام: يا بنية اسمعي واستمعي واعقلي، إنه لا إمرة لامرأة لا تأتي هوى زوجها وهو ساكت. قال علي : فكففت عما كنت أصنع وقلت : والله لا آتي شيئا تكرهينه أبدا».

وقال حبيب بن أبي ثابت: « كان بين علي وفاطمة كلام، فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم فألقي له فراش فاضطجع عليه، فجاءت فاطمة فاضطجعت من جانب وجاء علي فاضطجع من جانب، فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيد علي فوضعها على صدره وأخذ بيد فاطمة ووضعها كذلك فالتقتا، ولم يزل حتى أصلح بينهما ثم خرج.

قال: فقيل له دخلت وأنت على حال وخرجت ونحن نرى البشر في وجهك فقال صلى الله عليه وسلم: وما يمنعني وقد أصلحت بين أحب اثنين إلي ".

صبره صلى الله عليه وسلم على موت أولاده:

عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: « لما وضعت أم كلثوم ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم في القبر، قال عليه الصلاة والسلام: (منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى، قال الراوي: ثم لا أدري أقال: بسم الله وفي سبيل الله وعلى ملة رسول الله أم لا؟ «

وروى جابر رضي الله عنه: « أن النبي صلى الله عليه وسلم أخذ بيد عبد الرحمن بن

عوف فأتى به النخل حيث تقطن مارية، فإذا ابنه إبراهيم في حجر أمه يجود نفسه، فأخذه رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجره ثم قال: يا إبراهيم إنا لا نغني عنك من الله شيئا وذرفت عينه، ثم قال : يا إبراهيم لولا أنه أمر حق ووعد صدق وأن آخرنا سيلحق أولنا لحزنا عليك حزنا هو أشد من هذا وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون ، تبكي العين ويحزن القلب ولا نقول ما يسخط الرب».

الرسول صلى الله عليه وسلم لا يجامل أولاده على حساب الأمة:

ورغم كل هذا الحب والعطف واللين لأهله وأولاده وعشيرته إلا أنه صلى الله عليه وسلم لا يجامل أحدا على حساب الأمة.

عن علي رضي الله عنه: « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما زوجه فاطمة رضي الله عنها بعث معها بحملة ووسادة حشوها ليف ورحاءين وسقاء وجرتين، فقال علي لفاطمة ذات يوم : والله لقد سنوت - أي حملت السقاء حتى اشتكيت صدري ، فقد جاء الله أباك بسبي فاذهبي فاستخدميه - اطلبي خادما - فقالت : وأنا والله قد طحنت حتى ورمت يداي ، وكانت رضي الله عنها حاملا إذا خبزت أصاب حرف التنور بطنها ، فأتت النبي صلى الله عليه وسلم فقال: ما جاء بك يا بنية ؟ قالت : جئت لأسلم عليك، واستحييت أن تسأله ورجعت ، فقال علي : ما فعلت؟ فقالت: استحييت أن أسأله، فأتياه جميعا فقال علي : والله لقد سنوت حتى شكوت صدري ، وقالت فاطمة : والله لقد طحنت حتى ورمت يداي وقد أتى الله بسبي وسعة فاجعل لنا خادما . قال عليه الصلاة والسلام : والله لا أعطيكما وأدع أهل الصفة تطوى بطونهم من الجوع لا أجد ما أنفق عليهم ولكني أبيع السبي وأنفق على أهل الصفة من أثمانهم .

ولكن ... هل اكتفى رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذا الرد؟؟ ...

نعم.. إنه لم يجاملهم، ولكن طيب نفوسهم يحسن عشرته وتصرفه حتى في مثل هذا الموقف، وأفاض عليهم من قلبه الرحيم وعلمهم ما يخفف بإذن الله آلامهم ويعينهم على قضاء حوائجهم. فذهب صلى الله عليه وسلم إلى ابنته ليلا وهو يعلم معاناتها، وعلمها تسبيحات تعينها وتقوي بدنها وتخفف أدواءها. قال لها صلى الله عليه وسلم: (ألا أدلك على خير من ذلك؟ إذا أويت إلى فراشك تسبحين الله ثلاثا وثلاثين وتحمدينه ثلاثا وثلاثين وتكبرينه أربعا وثلاثين) ”.

ولا أدري كيف أختم حديثي عن معاملته صلى الله عليه وسلم لأهله وعشيرته، فالحديث عن ذلك طويل، ولعلي أوفق بختم هذا الموضوع بقول الله تعالى: ((وأنذر عشيرتك

الأقربين)) واستجابته صلى الله عليه وسلم لهذا النداء حيث نهض وقصد جبل الصفا المعروف بمكة ونادى بأعلى صوته: «يا صباحاه يا معشر قريش أنقذوا أنفسكم من النار، يا معشر بني كعب أنقذوا أنفسكم من النار، يا معشر بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار.. يا معشر بني عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار.. يا فاطمة بنت محمد أنقذي نفسك من النار فإني والله لا أملك لكم من الله شيئا إلا أن لكم رحما سأبلها ببلالها».

فداك أبي وأمي يا رسول الله.

الفصل الثاني

محمد صلى الله عليه وسلم
لين جانبه مع أصحابه
وقضاء حوائجهم

ثانيا - لين جانبه صلى الله عليه وسلم مع أصحابه وقضاء حوائجهم

السعادة ليست في العيش لنفسك فقط، بل في أن تكون سبباً في سعادة الآخرين، تمد لهم يد العون، وتخفف عنهم همومهم، وتكون لهم سنداً في أوقات الشدة. وهذا ما جسّده النبي ﷺ في تعامله مع أصحابه، فكان القائد الذي لا يتكبر، والصديق الذي لا يجفُو، والأخ الذي يشعر الجميع بالقرب منه.

لم يكن ﷺ يُشعر أحداً بثقل حاجته، بل كان يسارع لخدمة أصحابه، يُدخل السرور على قلوبهم، ويشعر كل واحدٍ منهم أنه الأقرب إليه. كان يجلس بينهم متواضعاً، يبتسم لهم، وينصت إليهم، ويشاركهم أفراحهم وأحزانهم، حتى أحبّه كل من حوله حباً يفوق الوصف ﷺ.

في هذا الفصل، سنرى كيف كان النبي ﷺ نموذجاً في حسن الصحبة، كيف أعطى لكل صاحب حقه من الاهتمام والمودة، وكيف جعل من اللين والرحمة أسلوباً في القيادة والتعامل، ليكون بذلك قدوةً لكل من أراد أن يكسب القلوب، ويبني علاقات قائمة على الاحترام والوفاء.

مقابلته الإساءة بالإحسان:

عن أنس رضي الله عنه قال: « كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم وعليه برد غليظ الحاشية، فجذبه أعرابي بردائه جذبة شديدة حتى أثرت حاشية البرد في صفحة عاتقه، ثم قال: يا محمد .. احمل لي على بعيري هذين من مال الله الذي عندك فإنك لا تحمل لي من مالك ولا من مال أبيك، فسكت النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال: المال مال الله وأنا عبده، ثم قال: ويقاد منك يا أعرابي ما فعلته بي؟! قال: لا، قال: لم ؟، قال: لأنك لا تكافئ بالسيئة السيئة، فضحك النبي صلى الله عليه وسلم ثم أمر أن يحمل له على بعير تمر وعلى الآخر شعير».

وعن ابن شهاب رضي الله عنه قال: « غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم غزوة وذكر خيلنا، قال: فأعطى الرسول صلى الله عليه وسلم صفوان ابن أمية بن خلف مائة من النعم ثم مائة ثم مائة، فقال صفوان: والله لقد أعطاني ما أعطاني وإنه لأبغض الخلق إلي، فما زال يعطيني حتى إنه لأحب الخلق إلي».

وجاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم يطلب منه شيئا فأعطاه، ثم قال عليه الصلاة والسلام: أأحسنت إليك؟ فقال الأعرابي: لا، ولا أجملت، فغضب المسلمون وقاموا إليه، فأشار الرسول صلى الله عليه وسلم إليهم أن كفوا، ثم قام ودخل منزله وأرسل إليه وزاده شيئا، ثم قال: أحسنت إليك؟ فقال: نعم.. وجزاك الله خيرا من أهل عشيرة خيرا، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: إنك قلت ما قلت، وفي نفس أصحابي من ذلك شيء، فإن أحببت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدي حتى يذهب ما في صدورهم عليك. قال: نعم. فلما كان الغد أو العشي جاء، فقال عليه الصلاة والسلام: إن هذا الأعرابي قال ما قال، فزدناه، فزعم أنه راض، أكذلك؟ قال الأعرابي: نعم، فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرا، فقال صلى الله عليه وسلم: مثلي ومثل هذا كمثل رجل له ناقة شردت عليه، فأتبعها الناس فلم يزيدوها إلا نفورا، فناداهم صاحبها خلوا بيني وبين ناقتي فإني أرفق بها منكم وأعلم، فتوجه لها بين يديها فأخذ لها تمام الأرض فردها حتى جاءت واستناخت وشد عليها رحلها واستوى عليها ... وإني لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال فقتلتموه دخل النار».

والشواهد والحوادث كثيرة على مقابلته صلى الله عليه وسلم الإساءة بالإحسان، فأكتفي بإضافة حادثة أخرى في هذا المجال.. . فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتجهز في المدينة لفتح مكة، وكان يخفي أمره حتى عن أبي بكر وعائشة، فلما أعلن العزم.. سارع حاطب بن أبي بلتعة إلى امرأة استأجرها وكتب لها كتابا إلى قريش، ووضعته في شعرها وفتلت عليه قرونها، فعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك، وأخذت المرأة في الطريق، فلما سأل حاطبا ما حمله على فعله؟ قال: يا رسول الله أما والله إني لمؤمن ما غيرت ولا بدلت، ولكني كنت أمرؤا ليس في القوم من أهل ولا عشيرة، وكان لي بين أظهرهم ولد وأهل فصانعتهم عليهم. فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه دعني فلأضرب عنقه فإن الرجل قد نافق، فقال رسول الله: وما يدريك يا عمر؟ لعل الله قد اطلع على أصحاب بدر يوم بدر فقال: اعملوا ما شئتم قد غفرت لكم!! فأنزل الله في حاطب: ((يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة)).

فلننظر إلى هذه المعاملة السامية ورد السيئة بالحسنة، وأي شيء أكبر من كشف سر من أسرار الرسول عليه الصلاة والسلام لأعدائه؟! .. ولكن ... مع هذا كله فرحمته وعفوه ونبل أخلاقه فاضت على نفسه صلى الله عليه وسلم.

وصدق الله تعالى إذ يقول ((ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم)).

الوفاء بالعهد:

ووفاؤه صلى الله عليه وسلم لأصحابه هو الذي تستنفذ فيه القراطيس ولا ننتهي، فحياته منذ الصبا هي البر والوفاء.

فعن عبد الله بن أبي الحسماء رضي الله عنه قال: « بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يبعث وبقيت له بقية فوعدته أن آتيه بها في مكانه، فنسيت ثم ذكرت بعد ثلاث، فإذا هو في مكانه، فقال صلى الله عليه وسلم: لقد شققت علي، أنا هنا منذ ثلاث أنتظرك».

وهاكم حادثة أخرى تبين لنا موقف رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على فراش الموت يوصي أهله بأن يحسنوا لمن أحسنوا إليه من قبل، ولما اشتد به مرضه صلى الله عليه وسلم خرج إلى أصحابه، فصعد المنبر، وقال: يا معشر المهاجرين، استوصوا بالأنصار خيرا، فإن الناس يزيدون، وإن الأنصار على هيئتها لا تزيد ، وإنهم كانوا عيبتي التي أويت إليها ،فأحسنوا إلى مُحسنهم، وتجاوزوا عن مسيئهم.

ذلكم الوفاء الذي نحن في أمس الحاجة إليه، ولن يستقيم أمر العالم حتى يتذوقه الناس كما تذوقه محمد صلى الله عليه وسلم وصحبه الكرام رضوان الله عليهم.

مودته لأصحابه وسؤاله عنهم وتفقده لهم:

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا صلى الغداة أقبل عليهم بوجهه فقال: هل فيكم مريض أعوده؟ فإن قالوا لا، قال: هل فيكم جنازة أتبعها؟ فإن قالوا لا، قال: من رأى منكم رؤيا فليقصها علينا «

وعن أنس رضي الله عنه قال: « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا فقد الرجل من إخوانه ثلاثة أيام، سأل عنه، فإن كان غائبا دعا له، وإن كان شاهدا زاره، وإن كان مريضا عاده».

وعن مالك بن الحويرث رضي الله عنه قال: « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم رحيما رفيقا، فأقمنا عنده عشرين ليلة، فظن أنا قد اشتقنا أهلنا، فسألنا عمن تركنا من أهلنا فأخبرناه، فقال: ارجعوا إلى أهليكم فأقيموا فيهم».

وأخرج الإمام أحمد من حديث أنس رضي الله عنه» أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يلقى الرجل فيقول: يا فلان كيف أنت؟ فيقول : بخير أحمد الله، فيقول له النبي عليه الصلاة والسلام : جعلك الله بخير. وروى الترمذي وغيره عن هند بنت أبي هالة في حديث

يصف النبي صلى الله عليه وسلم، وفيه: « كان عليه الصلاة والسلام يتفقد أصحابه ويسأل الناس عما في الناس، والمعنى أنه كان يسأل عنهم حال غيبتهم عنه «

إيثاره صلى الله عليه وسلم أصحابه على نفسه:

كان صلى الله عليه وسلم يؤثر أصحابه على نفسه، ويجود بما أعطاه الله من مال، فما سئل شيئا من الدنيا قط فقال لا» ولقد جاءت إليه امرأة ببردة منسوجة فقالت: نسجتها بيدي لأكسوها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأخذها عليه الصلاة والسلام محتاجا إليها ولبسها، فقال له رجل من الصحابة: أكسنيها يا رسول الله، فقال صلى الله عليه وسلم: نعم، فدخل منزله فطواها وبعث بها إليه، فقال له بعض الصحابة: ما أحسنت إذ سألت رسول الله وقد علمت أنه لا يرد سائلا وقد لبسها محتاجا إليها. فقال: إني والله ما سألته لألبسها، إنما سألته لتكون كفني. قال سهل بن سعد: فكانت كفنه «

هذا مثل من أمثال اتصافه صلى الله عليه وسلم بهذا الخلق الكريم. فهل بعد هذا كرم يصدر من مخلوق؟ وهل وراء هذا الإيثار إيثار؟

وفي صحيح مسلم عن أبي قتادة في حديث نومهم عن صلاة الفجر وقد عطشوا وتكابوا على الماء، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أحسنوا الملئ كلكم سيروى. ففعلوا، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يصب، قال أبو قتادة: وأنا أسقيهم، حتى ما بقي غيري وغير رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لي: اشرب فقلت: لا أشرب حتى تشرب يا رسول الله . فقال عليه الصلاة والسلام: إن ساقي القوم آخرهم شربا، قال: فشربت وشرب رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ممازحته أصحابه ومداعبتهم:

ومما يتصل بطيب النفس حب الدعابة والمزاح البريء، فقد كان صلى الله عليه وسلم يحب الدعابة ويبتسم للنكتة اللطيفة، ويمازح أصحابه ويداعبهم.

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه: « أن رجلا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: احملني، فقال: إنا حاملوك على ولد الناقة، قال: وما أصنع بولد الناقة ؟! قال عليه الصلاة والسلام: وهل تلد الإبل إلا النوق!»

وعنه رضي الله عنه قال: « إن عجوزا دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألته عن شيء، فقال لها ممازحا: «إنه لا يدخل الجنة عجوز. وحضرت الصلاة فخرج الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الصلاة، فبكت بكاء شديدا حتى رحل النبي صلى الله عليه وسلم. فقالت عائشة: يا رسول الله إن هذه المرأة تبكي لما قلت لها إنه لا يدخل الجنة عجوز، فضحك عليه الصلاة والسلام وتلا قوله تعالى: ((إنا أنشأنا هن إنشاء، فجعلناهن أبكارا عربا أترابا)) وهن العجائز الرمص - اللواتي ضعف بصرهن - «

وعن أنس رضي الله عنه: « أن رجلا من البادية يقال له زاهر أو زهير، وكان يهدي النبي صلى الله عليه وسلم الهدية من البادية، فيجهزه رسول الله إذا أراد أن يخرج، فقال صلى الله عليه وسلم: زهير باديتنا ونحن حاضرته»

وكان رسول الله يحبه، مشى يوما إلى السوق فوجد زهيرا يبيع متاعه، فاحتضنه من خلفه وهو لا يبصره، فقال زهير: أرسلني.. من هذا؟ من هذا؟، فلما عرف أنه النبي صلى الله عليه وسلم جعل لا يألو ما ألصق ظهره بصدر النبي عليه الصلاة والسلام حين عرفه. فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: من يشتري العبد؟ فقال زهير: يا رسول الله إذن تجدني كاسدا!! فقال عليه الصلاة والسلام: ولكنك عند الله لست بكاسد أو قال: لكن عند الله غال. . وجاءته امرأة من الأنصار تشكو إليه زوجها. فقال لها: أزوجك الذي في عينه بياض؟، فجزعت المرأة إذ ظنت أن بعينه عيبا لم تطلع عليه، فأفهمها أن كل إنسان في عينه بياض حول المقلة. فهذا هو رسول الله صلى الله عليه وسلم، لم يمنعه مكانه بين أصحابه وعند ربه، ولم تمنعه رسالته وعظمته من أن يمازح أصحابه ويداعبهم ويدخل السرور على قلوبهم.

تبسمه حين يلقى أصحابه وحين يحدثهم:

كان عليه الصلاة والسلام كثيرا ما يتبسم في وجوه أصحابه حين يلقاهم، وفي حديثه إليهم، تلطفا بهم ومؤانسة لهم. قال جرير بن عبد الله رضي الله عنه: « ما حجبني رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ أسلمت، ولا رآني إلا تبسم. . وروى الإمام أحمد عن أم الدرداء رضي الله عنها قالت: « كان أبو الدرداء إذا حدث حديثا تبسم، فقلت: لا يقول الناس إنك أحمق!! - أي بسبب تبسمه أثناء كلامه - فقال أبو الدرداء: ما رأيت أو سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدث حديثا إلا تبسم. . فكان أبو الدرداء يتبسم إذا تحدث اتباعا لرسول الله صلى الله عليه وسلم واقتداء به في ذلك.

حسن الموعظة:

عن عائشة رضي الله عنها قالت: « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا بلغه عن الرجل شيء، لم يقل ما بال فلان يقول، ولكن يقول: ما بال أقوام يقولون كذا وكذا؟ »، فلم يكن الرسول صلى الله عليه وسلم فظا غليظا، ولا جافا في نصحه، ولا فاضحا، بل كان ناصحا مربيا معلما بأدب وتلطف، دون أن يجرح المشاعر أو يؤذي الحواس. ولنسمع هذه القصة لنتأسى بأخلاقه عليه الصلاة والسلام:

فقد روى معاوية بن الحكم السلمي قال: « بينما أصلي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ عطس رجل من القوم، فقلت: يرحمك الله، فرماني القوم بأبصارهم، فقلت: وا ثكل أماه.. ما شأنكم تنظرون إلي؟، فضربوا على أفخاذهم فلما رأيتهم يصمتونني أردت أن أكلمهم، ولكن سكت، فلما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس، إنما هي التسبيح والتكبير وقراءة القرآن. يقول معاوية: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، ما رأيت معلما قبله ولا بعده أحسن تعليما منه، ما انتهرني ولا ضربني ولا شتمني».

فأي مرب أعظم من رسول الله؟! وأي ناصح أرأف بأصحابه من رسول الله؟ فهل تكون لنا هذه الدروس عبرا ومواعظ وأسسا في تعاملنا مع غيرنا، وفي إرشاد التائهين ونصح الحائرين دون تعنت ولا تعسف، بل بلطف، ورأفة وود وحنان!!!

إجابته الدعوة:

لم يكن عليه الصلاة والسلام متكبرا على أصحابه أو متعاليا عليهم، أو مترفعا عن إجابة دعوة أقلهم منزلة، بل كان يجيب من دعاه، ويقبل الهدية. ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجيب من دعاه ويقبل الهدية ولو كانت كراعا، ويثيب عليها».

وروى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((لو دعيت إلى ذراع أو كراع لأجبت، ولو أهدي إلى ذراع أو كراع لقبلت))

وكان صلى الله عليه وسلم إذا أكل عند قوم لم يخرج حتى يدعو لهم، فدعا في منزل عبد الله بن بسر وقال: ((اللهم بارك لهم فيما رزقتهم واغفر لهم وارحمهم)). ودعا صلوات ربي وسلامه عليه في منزل سعد بن أبي وقاص فقال: ((أفطر عندكم الصائمون، وأكل

طعامكم الأبرار، وصلت عليكم الملائكة)). وسقاه رجل لبنا فقال صلى الله عليه وسلم: ((اللهم متعه بشبابه)) فمرت ثمانون سنة لم ير شعرة بيضاء.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعى إلى خبز الشعير والإهالة السنخة فيجيب»

عطفه على الصغار:

لم يقتصر لين جانبه صلى الله عليه وسلم على أصحابه، بل تعداهم إلى أولادهم. فكان عليه الصلاة والسلام يداعب صبيان المسلمين ويجلسهم في حجره، وكان إذا مر بالصبيان سلم عليهم.

روى مسلم في صحيحه عن شعبة بن يسار قال: « كنت أمشي مع ثابت البناني، فمر بصبيان فسلم عليهم، وحدث ثابت أنه كان يمشي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فمر بصبيان فسلم عليهم..

فيا لله.. ما أعظم هذا النبي وما أعظم صحابته وتابعيهم، يقلدونه ويقتدون به حتى في السلام على الصبيان!!، فهل تكون هذه حوافز لنا للاقتداء به والتأسي بأقواله وأفعاله عليه أفضل الصلاة والسلام؟!

يقول أنس رضي الله عنه: « إن كان النبي صلى الله عليه وسلم ليخالطنا حتى يقول لأخ لي صغير: يا أبا عمير ما فعل النغير؟، وفي رواية أخرى عنه قال: «كان النبي صلى الله عليه وسلم أحسن الناس خلقا، وكان لي أخ صغير يقال له أبو عمير، وكان إذا جاء قال له الرسول صلى الله عليه وسلم: يا أبا عمير ما فعل النغير؟»، والنغير طائر صغير كان يلعب به.. فهذا دليل على أنه صلى الله عليه وسلم لم يكن يداعب الصبيان فقط، بل هذا فطيم يداعبه ويسأله عن الطائر الذي يلعب به، يمازحه ويلاطفه، ويدخل السرور على قلبه.

يقول أنس رضي الله عنه: « ما رأيت أحدا أرحم بالعيال من رسول الله صلى الله عليه وسلم "، وعن عبد الله بن الحارث رضي الله عنه قال: « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصف عبد الله وعبيد الله ابني عمر وكثير بن العباس، ثم يقول: من سبق إلى فله كذا وكذا، قال فيستبقون إليه فيقعون على ظهره وصدره فيقبلهم ويلتزمهم ويحتضنهم». فأي مداعبة للأطفال بعد ذلك وأي ملاطفة، وأي رعاية من رسول وأب حان كريم ...

أخلاقه مع الضعاف:

كان عليه الصلاة والسلام يشفق على أصحابه كلهم، وبالأخص الضعاف والمساكين منهم، فكان إذا أتاه طعام أرسل إلى أهل الصفة يطعمهم، وكان يحنو على الصغير، ويطعم الجائع، ولا يرد سائلا، ولا يغلق بابه دون عزيز أو حقير.

عن الحسن بن علي رضي الله عنهما أنه ذكر النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: «لا والله ما كان يغلق دونه الأبواب ويقوم دونه الحجاب، ولا يغدى عليه بالجفان، ولا يراح عليه بها، ولكنه كان بارزا، من أراد أن يلقى نبي الله لقيه».

وعن عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه قال: « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يأنف ولا يستكبر أن يمشي مع الأرملة والمسكين فيقضي. له حاجته «

وعن سهل بن حنيف رضي الله عنه قال: « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتي ضعفاء المسلمين ويزورهم ويعود مرضاهم ويشهد جنائزهم.. كل ذلك عطفا عليهم.. وإشفاقا ورحمة بهم»

أخلاقه مع الخدم:

كان رحيما بهم، لا يعنفهم، ولا يزجرهم، ولا ينهاهم، ولا يضربهم، ولا يسيء إلى أحد منهم.

فقد روى أبو هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إذا أتى أحدكم خادمه بطعام، فإن لم يجلس معه فليناوله لقمة أو لقمتين). وقال معاوية بن سويد: « كنا بني مقرن على عهد رسول الله ليس لنا خادم إلا واحدة، فلطمها أحدنا، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: أعتقوها، فقيل: ليس لهم خادم غيرها. قال: فليستخدموها فإذا استغنوا عنها فليخلوا سبيلها».

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: « ضربت غلاما لي بالسوط، فسمعت صوتا من خلفي، فإذا برسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: اعلم أبا مسعود أن الله أقدر عليك منك على هذا الغلام.

وكان عليه السلام لا يحب أن يقول أحد عبدي وأمتي، بل كان يأمرهم أن يقولوا: فتاي وفتاتي رأفة بهم، ومراعاة لأحاسيسهم ومشاعرهم.

وفي الصحيحين عن أنس رضي الله عنه قال: « خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم

عشر سنين، فما قال لي أفٍّ قط، ولا لم صنعت؟ ولا ألا صنعت؟ «

وكان عليه الصلاة والسلام يخالط المساكين والخدم والعبيد ويحادثهم ويجيب دعوتهم ويعود مرضاهم ويمشي في جنائزهم ويصلي عليهم.

فأين نحن من أخلاقه صلى الله عليه وسلم وأين واقعنا من تعامله مع كل الناس!!

فلو كان قولنا وفعلنا نابعا من أوامر المصطفى ﷺ وأفعاله لساد الحب والإخاء، ولنبذنا التباغض والأحقاد، ولسدنا الدنيا بأسرها وما استعلى علينا كافر ولا فاجر، واتحدت كلمتنا، واجتمعنا على الحب في الله والنصح في الله والتعاون والتكاتف ... فنسأل الله أن يوفقنا لاتباعه، والتأسي بأخلاقه عليه الصلاة والسلام، حتى نكون بحق إخوانه الذين آمنوا به ولم يروه، واتبعوا نهجه وساروا على خطاه، واستنوا بسنته، واهتدوا بهديه إلى يوم الدين.

الفصل الثالث

محمد صلى الله عليه وسلم
مواقفه مع مخالفيه وأعدائه

في عالمٍ يمتلئ بالصراعات والخلافات، يبحث كثيرٌ من الناس عن السعادة في الانتصار على الآخرين، بينما تكمن السعادة الحقيقية في القدرة على التسامح، وضبط النفس، والتعامل بالحكمة. وهذا ما تجلى في شخصية النبي ﷺ، الذي لم يكن ردّه على العداء بالمثل، بل كان يدير المواقف بأخلاقٍ سامية، تجمع بين الحلم والقوة، وبين العدل والعفو، فحوّل أعداء الأمس إلى أوفياء لدعوته.

لم يكن ﷺ يسعى للانتقام، بل كان قلبه متسعاً للعفو والتسامح، حتى مع أشد من آذوه، فكان يقابل الإساءة بالإحسان، ويُمهل قبل أن يُعاقب، ويصفح حين يكون العفو أنفع للقلوب. ولأنه تعامل مع مخالفيه بحكمة، أصبح كثيرٌ منهم من أخلص أتباعه، بعدما لمسوا في شخصه الرحمة التي لم يجدوها عند غيره.

في هذا الفصل، سنرى كيف واجه النبي ﷺ خصومه، ليس بسلاح القوة فقط، بل بسلاح الأخلاق، وكيف استطاع أن يطفئ نار العداوة بالحلم، ويكسب القلوب بالعدل، ليكون بذلك قدوةً لكل من أراد أن يعيش سعيداً، متحرراً من أحقاد النفس، قادراً على تجاوز الخلافات بحكمة ورحمة.

ثالثا - مواقفه صلى الله عليه وسلم مع مخالفيه وأعدائه

لقد كانت أخلاق الرسول صلى الله عليه وسلم الكريمة، وشمائله الطيبة، سببا في نشر دين الله تعالى، وجمع كلمة المسلمين، وتأليف قلوب الناس حوله عليه الصلاة والسلام.

وصدق الله إذ يقول ((فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك))، ولقد تعدت هذه الأخلاق حدود المؤمنين به حتى شملت أعداءه ومخالفيه.

صبره على أعدائه وإحسانه إليهم:

كان عليه الصلاة والسلام صابرا على أعدائه، محسنا لهم، من ذلك ما روته عائشة رضي الله عنها قالت: « ما رأيت رسول الله منتصرا من مظلمة ظلمها قط، مالم تكن حرمة من حرمات الله، وما ضرب بيده خادما ولا امرأة قط. وعنها قالت: « لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم فاحشا ولا متفحشا ولا صخابا في الأسواق ولا يجزي بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح».

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: « كان صلى الله عليه وسلم يقبل بوجهه وحديثه على شر القوم، يتألفه بذلك»

رحمته بأعدائه:

بلغ من رحمته صلى الله عليه وسلم بأعدائه أنه حين شاقه قومه من أهل مكة وتحدوه بقولهم، كما حكى عنهم القرآن الكريم ((اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم)) فلم يطلب من ربه أن ينزل عليهم ما سألوا من العذاب، بل كان موقفه كما عبر عنه عبد الله بن عمر: أن رسول الله تلا قوله تعالى في إبراهيم: ((رب إنهن أضللن كثيرا من الناس فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم)) وقول عيسى ((إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم)) فرفع يديه وقال: آمين آمين، وبكى.. فقال الله تعالى: يا جبريل اذهب إلى محمد فسله ما يبكيك؟ - وربك أعلم - فأتاه جبريل فسأله، فأخبره الرسول صلى الله عليه وسلم بما قال، فقال الله عز وجل: يا جبريل، اذهب إلى محمد فقل: إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوؤك «

ومن رحمته بأعدائه صلى الله عليه وسلم أنه رفع إليه بعد وقعة من الوقعات أن صبية قتلوا بين الصفوف، فحزن حزنا شديدا، فقال بعضهم: ما يحزنك يا رسول الله وهم صبية للمشركين؟ فغضب النبي صلى الله عليه وسلم وقال إن هؤلاء خير منكم، إنهم على الفطرة، فإياكم وقتل الأولاد إياكم وقتل الأولاد..

روى البخاري عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: « مرت بنا جنازة فقام لها النبي صلى الله عليه وسلم، فقلنا: يا رسول الله إنها جنازة يهودي، فقال: أوليست نفسا؟ إذا رأيتم الجنازة فقوموا».

ولما مات عبد الله بن أبي بن سلول زعيم المنافقين في المدينة، وهو الذي رجع بمن معه يوم أحد وخذل رسول الله في أحرج أوقاته، وله مواقف مشهورة كان فيها شرا على الرسول والمسلمين، فلما مات طلب ابنه من النبي صلى الله عليه وسلم قميصه ليكفنه فيه تطهيرا له، فأعطاه قميصه كفنا لزعيم المنافقين!! ... أرأيت أكرم من هذا الصنيع؟؟!! ثم مشى النبي صلى الله عليه وسلم إلى قبره، فوقف يريد الصلاة عليه، فوثب عمر بن الخطاب وقال: يا رسول الله أتصلي على ابن أبي؟ وقد قال يوم كذا كذا وكذا؟؟ يعد عليه قوله، فتبسم الرسول صلى الله عليه وسلم وقال: عني يا عمر، قال عمر: فلما أكثرت عليه قال: إني خيرت فاخترت ولو أعلم أني لو زدت على السبعين غفر له لزدت عليها، وانصرف..

ومن أمثلة رحمته صلى الله عليه وسلم بأعدائه ما قرأته واستنبطته من إحدى مواقفه في غزوة حنين: ففي هذه الموقعة مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بامرأة وقد قتلها خالد بن الوليد والناس مزدحمون عليها، فقال: ما هذا؟ قالوا: امرأة قتلها خالد بن

الوليد، فقال لمن معه: أدرك خالدا فقل له: إن رسول الله ينهاك أن تقتل وليدا أو امرأة أو عسيفا..

ودرس آخر تلمح فيه طابع رحمته صلى الله عليه وسلم بأعدائه ومقاتليه، نلمحه من خلال وصيته صلى الله عليه وسلم لقواده في غزوة مؤتة، حيث أوصاهم بقوله: (أوصيكم بتقوى الله، وبمن معكم من المسلمين خيرا، اغزوا باسم الله وفي سبيل الله من كفر بالله، لا تغدروا، ولا تغلوا، ولا تقتلوا وليدا ولا امرأة ولا كبيرا فانيا ولا منعزلا في صومعته، ولا تقربوا نخلا، ولا تقطعوا شجرة، ولا تهدموا بناء)

فهل عرف التاريخ فاتحا أرحم من رسول الله وأبنائه المسلمين؟

إنه والله أرحم بالإنسانية من أولئك الذين يتحدثون عن حقوق الإنسان ويوم الأطفال ويوم الأمهات في القرن الحادي والعشرين.

عفوه عن مسيئهم:

عفوه - صلى الله عليه وسلم - وصفحه عمن أسرفوا في إيذائه هو الخلق الكريم الذي أدبه به القرآن، قال تعالى: ((خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين)) فالعفو عند المقدرة مرآة تتجلى فيها أحسن صور النفس، يتجلى فيها سمو المقاصد، وبعد الغاية، والترفع عن الشهوات، وتبدو البطولة في أروع صورها.. ولن تجد في تاريخ البشر كلهم مثل محمد ظافرا، ناجحا، مؤيدا، يعطي من حرمه، ويعفو عمن ظلمه ....

ومن أمثلة عفوه صلى الله عليه وسلم عمن خالفه وعاداه:

لما اشتد البلاء من قريش على رسول الله بعد موت عمه أبو طالب، خرج إلى الطائف وحده يلتمس حماية ثقيف والامتناع بهم عن قومه، فردوه أشنع رد، وسخر به زعماؤها الثلاثة من بني عمرو بن عمير، فقال له أحدهم: أما وجد الله أحدا يرسله غيرك؟ وقال الآخر: والله لا أكلمك أبدا.. لئن كنت رسولا كما تقول فأنت أخطر من أرد عليك كلامك.. ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغي لي أن أكلمك، فسألهم محمد عليه السلام أن يكتموا عليه، وقال لهم: إذا فعلتم ما فعلتم فاكتموا ذلك عني، وكان يخشى سوء المنقلب إلى مكة ، والشماتة والغلو في إيذائه ، فأبوا حتى هذه عليه، وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به حتى أخرجوه من البلد ، وتبعه الصبية والسوقة يصيحون مسيرة ثلاثة أميال ، يعبثون به ، ويقذفونه بالحجارة ، حتى أدموا قدميه الشريفتين ، وكلما جلس أقاموه وأجبروه على المشي ، فلجأ إلى حائط (بستان)

لعتبة بن ربيعة ، فلما اطمأن قال : (اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس يا رب العالمين أنت رب المستضعفين وأنت ربي ، إلى من تكلني ؟ إلى بعيد يتجهمني أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي.. ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك أو يحل على سخطك، لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك)، فلما رجع إلى مكة لم يستطع أن يدخلها إلا في حماية مطعم بن عدي.

ومن معاملته لأهل مكة والطائف ورؤساء الفتنة وزعماء الشر الذين أسرفوا في إيذائه واضطهاده، تتجلى لنا نفسه الكريمة في مرآة عفوه وصفحه الجميل، فها هو يدخل فاتحا في جيش لم تر جزيرة العرب مثله يكتسح مكة، وتطؤها خيله، ويمر إلى حنين والطائف فيقع بين يديه ستة آلاف من أسرى هوازن وثقيف، ويفر من بقي من السادة المتكبرين، ومالك بن عوف وياليل بن عمرو، فشمل عفوه ورحمته البلاد، والسادة والزعماء الذين عتوا في الأرض يُجزون بالبر والإحسان وأبطال العالم لا يعرفون لمثلهم غير قطع الرؤوس.

هذا محمد.. في ذروة المروءة لا يدانى.

وقبل أن يصل الجيش الفاتح إلى مكة خرج أبو سفيان في ثلاثة نفر مستطلعا، فعلم أن لا طاقة له ولقومه بلقاء محمد، فأردفه العباس على بغلة النبي صلى الله عليه وسلم التي كان يركبها، ودخل به المعسكر ليلا يطلب الأمان له ولمكة، فكان كلما مر بنار للمسلمين قالوا: هذا عم النبي على بغلته حتى مر بنار عمر بن الخطاب، فقال: من هذا؟ فلما رأى أبا سفيان على عجز الدابة قال: أبو سفيان عدو الله!! الحمد لله الذي أمكن منك بغير عهد ولا عقد، ثم سارع إلى رسول الله فقال: دعني أضرب عنقه، فقد أمكن الله منه بغير عقد ولا عهد ولكن رسول الله أمر أن يبيت أبو سفيان في رحل العباس، فلما أصبح جيء به فأسلم وعفا عنه، فقال العباس: يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحب الفخر، فاجعل له شيئا. فقال: نعم، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، وعاد أبو سفيان إلى مكة مسرعا والجيش يزحف إليها، وهو يقول: والله ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة! فلما جاء قومه صرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش هذا محمد قد جاءكم فيما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، فقالوا: قاتلك الله! وما تغني عنا دارك؟

فقامت هند بنت عتبة زوجه التي لاكت كبد حمزة يوم أحد، فأخذت بشارب زوجها أبي سفيان وقالت: اقتلوه، قبح من طليعة قوم. فقال أبو سفيان: ويلكم، لا تغرنكم هذه عن أنفسكم، فإنه قد جاءكم ما لا قبل لكم به، من دخل المسجد فهو آمن، ومن

أغلق عليه بابه فهو آمن..

فأي مثل في العفو الكريم أعظم من هذا؟

أبو سفيان الذي فعل الأفاعيل والذي أدمى كبد الرسول يوم أحد، والذي زلزل بحصاره المسلمين في الخندق.. أبو سفيان العاق من ولد عبد مناف الذي ناصر مخزوما وسهما على محمد وبني هاشم، يعفو عنه محمد ﷺ!! ثم يعطيه مع العفو ما يفخر به!! وقد كانت هبة الحياة كل الرجاء.. فإذا الحياة والجاه بعض عطايا محمد للمقهورين من أعدائه.

دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة، ولكن عكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أمية، وسهيل بن عمرو، ومن جمعوا من الناس أبوا إلا قتالا، فهزموا وفروا، ثم استأمنوا فأمنوا، بل عفا عنهم، بل أعطوا من غنائم هوازن تأليفا لقلوبهم.

وهناك مثل ليس له مثيل في تاريخ البشرية.. فهذا صفوان بن أمية العدو بن العدو، يفر إلى جدة ليبحر إلى اليمن، فيأتي عمير بن وهب إلى رسول الله فيقول: يا نبي الله، إن صفوان بن أمية سيد قومه، وقد خرج هاربا منك ليقذف نفسه في البحر، فأمنه. قال: هو آمن، قال: يا رسول الله فأعطني آية يعرف بها أمانك، فأعطاه الرسول عمامته التي دخل بها مكة، فخرج بها عمير حتى أدرك صفوان وهو يريد أن يركب البحر، فقال: يا صفوان ، فداك أبي وأمي ، الله الله في نفسك أن تهلكها فهذا أمان رسول الله قد جئتك به . قال : إني أخاف على نفسي ، قال : هو أحلم من ذاك وأكرم ، فرجع معه حتى وقف به على رسول الله ، فقال صفوان : إن هذا يزعم أنك أمنتني ، قال : صدق ، قال : فاجعلني في الخيار شهرين ، قال : أنت بالخيار أربعة أشهر.

هذا العدو بن العدو صفوان بن أمية لا يلقى من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعفو عنه فحسب، بل يبعث عمامته التي فتح مكة بها تطمينا للهائم على وجهه إلى البحر، ثم إذا ما طلب منه أن يتركه ليختار الإسلام أو الشرك شهرين، قال: بل أربعة، كي لا يقهره ولا يذله، فهل في تاريخ البشر مثال من العفو عند المقدرة أبر وأكرم من هذا الذي فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم؟؟!!

ولعلي أسوق موقفا آخر يدل على نبل معاملة رسول الله لأعدائه، ذلك يوم استعار الرسول عليه الصلاة والسلام من صفوان السلاح بعد فتح مكة، وكان صفوان من الضعف والهوان بحيث لا يقوى على فرض الشروط على رسول الله عليه وسلم حين طلب منه ذلك: أغصبا يا محمد؟ فأجابه رسول الله: بل عارية. يدل على ذلك قوله للرسول صلى الله مضمونة حتى نؤديها إليك ... فلو أن رسول الله أراد أن يأخذها منه

غصبا لاستطاع، ولما قدر صفوان أن يقول شيئا، ولكنه هدي النبوة في النصر ومعاملة المغلوبين، والعف عن أموالهم بعد أن تنتهي المعركة ويلقوا السلاح، وما علمنا أحدا فعل هذا قبل محمد ولا بعده. صلوات ربي وسلامه عليه.

ولكن أي حلم نتحدث عنه أعظم من كرمه وبره وعفوه صلى الله عليه وسلم يوم دخل مكة فاتحا منتصرا، فدخل الكعبة وصلى فيها ركعتين، ثم وقف على بابها وقريش تنظر ما هو فاعل بها، فقال فيما قاله ساعتئذ: يا معشر قريش ما تظنون أني فاعل بكم؟ قالوا: خيرا، أخ كريم وابن أخ كريم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اليوم أقول لكم ما قال أخي يوسف من قبل لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين) اذهبوا فأنتم الطلقاء.

وهكذا تلمح من خلال فتح مكة طبيعة الرسول الكريم الذي لا يجد الحقد إلى نفسه سبيلا، فقد من عليهم بعد كفاح استمر بينه وبينهم إحدى وعشرين سنة لم يتركوا فيها طريقا للقضاء عليه وعلى أتباعه ودعوته إلا سلكوها، فلما تم له النصر عليهم وفتح عاصمة وثنيتهم، لم يزد على أن استغفر لهم، وأطلق لهم حريتهم، ولم يفعل مثل هذا في التاريخ أحد!! ولكن يفعله رسول كريم لم يرد بدعوته ملكا ولا سيطرة، وإنما أراد الله له أن يكون هاديا فاتحا للقلوب والعقول، ولهذا دخل مكة خاشعا شاكرا الله، لا يزهو كما يفعل عظماء الفاتحين.

وهاكم قصة أخيرة لم تطاوعني نفسي أن أتجاوزها، تبين حلمه وعظيم عفوه صلى الله عليه وسلم، تلك قصة زيد بن سعنة أحد أحبار اليهود الذين أسلموا لرؤية تلك الآيات المحمدية، والعلامات النبوية الجلية. فقد ورد عن زيد أنه قال: « لم يبق من علامات النبوة إلا وقد عرفته في وجه محمد حين نظرت إليه، إلا اثنتين لم أخبرهما فيه: يسبق حلمه جهله، ولا تزيد شدة الجهل عليه إلا حلما. قال زيد: فكنت أتلطف له _ أي محمد - لأن أخالطه فأعرف حلمه وجهله، فابتعت أي اشتريت منه تمرا إلى أجل فأعطيته الثمن، وفي رواية أبو نعيم: فأعطاه ثمانين مثقالاً ذهبا من تمر معلوم إلى أجل معلوم. فلما كان قبل الأجل بيومين أو ثلاثة، أتيت محمدا فأخذت بمجامع قميصه، ورداؤه على عنقه، ونظرت إليه بوجه غليظ، ثم قلت: ألا تقضني يا محمد حقي؟ فوالله إنكم يا بني عبد المطلب مطل. فقال عمر: أي عدو الله تقول لرسول الله ما أسمع؟ فوالله لولا ما أحاذر فوته لضربت بسيفي رأسك! قال: ورسول الله ينظر إلى عمر بسكون وتؤدة وتبسم. ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أنا) وهو كنا أحوج إلى غير هذا منك يا عمر، أن تأمرني بحسن الأداء، وتأمره بحسن التباعة - أي المطالبة -، ثم قال صلى الله عليه وسلم: اذهب يا عمر فاقضه حقه وزده عشرين صاعا مكان ما رعته) ففعل ذلك عمر.

قال زيد: فقلت يا عمر.. كل علامات النبوة قد عرفتها في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم حين نظرت إليه إلا اثنتين لم أخبرهما، يسبق حلمه جهله، ولا تزيده شدة الجهل عليه إلا حلما، فقد اختبرته بهما، فاشهد يا عمر أني قد رضيت بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيا «.

فها هو حلمه.. وها هو عفوه وصفحه صلى الله عليه وسلم ... وها هي أخلاقه العظيمة، فهو المثل الأعلى والقدوة الحسنة للناس أجمعين.

وفاؤه لأعدائه:

الوفاء هو القوام لمكارم الأخلاق، به تستقيم الحياة، وهو ميزان المروءة ومقياس الفضل في الأفراد والأمم، ولو دان به الناس لوجدوا السعادة كاملة. ولو أن العهود والمواثيق كان لها من الحرمة ما أراد صلى الله عليه وسلم لما هبط العالم إلى حياة الدس والكيد، والذمم المخفورة، والجوار المنتهك. ولو سار المسلمون على النهج الذي نهجه، واقتدى بهم غيرهم، لوضعت العلاقات الدولية على أثبت القواعد التي تكفل السلم وتضمن الإنصاف وتستبقي الكرامة للناس جميعا.

وهذه صور من الوفاء.. هي أروع ما ينظر إليه الناس: قبل سنة من هدنة الحديبية كانت قريش تحاصر المدينة، وقد جمعت لذلك الأحزاب من أهل القرى والأعراب، فنقض بنو قريظة عهدهم مع رسول الله، واشتد بذلك الكرب وزلزل المؤمنون زلزالا شديدا، ولكن الله نصر عبده وأعز جنده، وألقى الرعب في قلوب المشركين. ولم تمض إلا فترة وجيزة حتى كان جيش الإسلام بقيادة رسول الله يزحف إلى مكة، فنزل الحديبية، وبعثت قريش رسلها إلى محمد صلى الله عليه وسلم.

كان لا يدعو على أعدائه:

كان عليه الصلاة والسلام لا يدعو على أعدائه، فقد قال له عمر بن الخطاب رضي الله عنه: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، لقد دعا نوح على قومه فقال: رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ولو دعوت علينا بمثلها لهلكنا من عند آخرنا، ولقد وطيء ظهرك وأدمي وجهك، فأبيت أن تقول إلا خيرا، فقلت: (اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: « لما كُذِّب الرسول صلى الله عليه وسلم، أتاه جبريل

عليه السلام فقال: إن الله تعالى قد سمع قول قومك لك، وما ردوا به عليك / وقد أمر ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، فناداه ملك الجبال وسلم عليه وقال: مرني بما شئت، إن شئت أطبق عليهم الأخشبين؟ فقال صلى الله عليه وسلم: بل أرجو الله أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا.. وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: « قالت قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم: ادع لنا ربك أن يجعل لنا الصفا ذهبا، ونؤمن بك !! قال: وتفعلون ؟؟ قالوا: نعم. فأتاه جبريل عليه السلام فقال: إن ربك عز وجل يقرأ عليك السلام ويقول: إن شئت أصبح لهم الصفا ذهبا، فمن كفر بعد ذلك عذبته عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين، وإن شئت فتحت لهم باب التوبة والرحمة؟! فقال عليه الصلاة والسلام: (بل التوبة والرحمة). .

ولما كانت غزوة أحد وكسرت رباعيته صلى الله عليه وسلم، وجرح في شفته السفلى، وشج في جبهته الشريفة حتى سال منه الدم، فجعل ينشفه لئلا ينزل على الأرض ويقول: (لو وقع شيء على الأرض لنزل عليهم العذاب من السماء) ولقد شق ذلك على الصحابة فقالوا: لو دعوت عليهم؟ فقال: (لم أبعث لعانا، ولكن بعثت داعيا ورحمة، اللهم اغفر لقومي - وفي رواية - اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون).

وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت: « دخل رهط من اليهود على رسول الله فقالوا: السام عليكم، قالت عائشة: ففهمتها فقلت: وعليكم السام واللعنة، قالت: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: مهلا يا عائشة ، إن الله يحب الرفق في الأمر كله ، فقلت : يا رسول الله ألم تسمع ما قالوا ؟ قال رسول الله : قد قلت وعليكم ... فهذه أخلاق العربي والمعلم الأول ، والرسول القدوة ، والنبي الأسوة ، الرؤوف بأصحابه ، والرحيم بأعدائه ، وصدق الله : ((لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم . فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم)).

الخاتمة

وقبل الختام ... لابد من كلمة حق أقولها، وهي اعترافي بقصوري وتقصيري عن الإحاطة بجوانب هذا الموضوع العظيم وشخصية هذا الرسول الكريم.

فمبلغ العلم فيه أنه بشر وأنه خير خلق الله كلهم، وحسبه تأديب ربه له، وهو القائل: (أدبني ربي فأحسن تأديبي) هذا الأدب الرباني الذي استلهمه مما يوحى إليه من ربه عز وجل بالقرآن الكريم الذي جمع الفضائل كلها وأحاط بما فيه سعادة البشرية في الدنيا والآخرة.

وقد حاولت بجهدي المتواضع أن اغترف من خصائصه صلى الله عليه وسلم ما استطعت إلى ذلك سبيلا، ليكون نبراسا نستضيء به ومنهاجا نسير عليه، فإن الخير كل الخير في الاقتداء به والسير على منهاجه.. عملا بقوله تعالى: ((من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظا)) وقوله جل شأنه: ((وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا))

أسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعل عملي خالصا لوجهه الكريم. وأسأل الله العظيم رب كل شيء ومليكه أن يرزقنا حسن الاتباع وتمام الامتثال وأن يوفقنا جميعا للتأدب بآداب هذا النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه، وأن يحيينا على دين الإسلام الذي ارتضاه لنا دينا، حتى يتوفانا عليه وهو راض عنا، إنه ولي ذلك والقادر عليه. ولا حول ولا قوة إلا به.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ،،،،،